صورة المجتمع التّقليدي بين أنساق الولاء والرّفض في رواية (سِفْر القضاة) لـ أحمد زغب.

The traditional image of society between loyalty in the novel (sifr el-khodat) by and rejection Ahmed Zeghab.

أ. قبنّه السّعيد‡
المشرفة: د. الشّامخة خديجة

تاريخ الاستلام:23-05-2019 تاريخ القبـول:18-09-2019

ملخّص: تسعى هذه الورقة البحثيّة في مضمونها للكشف عن الأنساق المضمرة من بينها أنساق الولاء والرّفض في المجتمع التّقليدي المجسّد في الخطاب الرّوائي المكتوب عن الجنوب الجزائري ومن خلالها نتعرّف على أهم الخصائص المجتمعيّة والقوانين الثّقافيّة التي تحكمه.

فروايّة (سِفْرُ القُضاة) للكاتب أحمد زغب-نموذج الدّراسة-تبيّن لنا في ضوئها أبرز العوامل التي أدّت إلى تشكّل هذين النّسقين، ومنها تسلّط المؤسّسة الدّينيّة التّقليديّة، وقد استأنسنا في هذه الدّراسة بمقاربات النّقد الثّقافي.

كلمات مفتاحيّة: أنساق؛ سفر؛ قضاة؛ رفض؛ ولاء.

‡جامعة غردايّة – الجزائر، البريد الالكتروني: guebennasaid@gmail.com (المؤلّف المرسل).

Abstract : This paper seeks to uncover the cultural patterns embedded in the written discourse on the Algerian south, through which we learn about the most important characteristics of traditional society and the cultural laws that govern it.

We have chosen this study from the depth of the south of Algeria, the author and academic researcher Ahmed Zeghab tried to provide a narrative approach to the social conditions of a sample of the Algerian community of southern Algeria during the colonial era and its implications in the Algeria of independence. We also provided a reading of the cultural patterns that led to the formation of loyalty And rejection in the collective unconscious of this society.

Keywords: great book, judges, novel, criticism, narration

المقدّمة: يسعى النّقد الثّقافي إلى تقديم رؤيا جديدة في دراسة وتحليل النّصوص السّرديّة ممتطيا متن اللغة السّاردة إلى عمق الفكرة التي تضيء الزّوايا المظلمة في الخطاب، وهوما يتعذّر الوصول إليها إلاّ بالكشف عن الأنساق الثّقافيّة المضمرة في مكنونات النّص، غير أنّه يستوجب علينا في البدايّة أنّ نستنير ببعض المفاهيم الإجرائيّة التي تتعلّق بالجانب اللغوي والاصطلاحي لأنساق الولاء والرّفض.

فقد جاء في لسان العرب أن النّسق " ما كان على طريقة نظام واحد عامّ في الأشياء، وقد نسّقته تنسيقا، والتّنسيق التّنظيم، والنّسق ما جاء من الكلام على نظام واحد "[1] وفي القاموس المحيط " نسق الكلام: عطَف بعضه على بعض والنّسق مُحرّكةً؛ ما جاء من الكلام على نظام واحد، وأنسق تكلّم سجعا، والتّنسيق: التّنظيم وناسق بينهما: تابع"[2]، وهذا يعني أنّ مفهوم النّسق كان مألوفا ومتداولا عند العرب وهو يصبّ في معنى التّنظيم والتّجميع والمشاكلة.

وأمّا في الجانب الاصطلاحي نجد أنفسنا أمام تصوّر عبد الله الغذامي الذي يرى أنّ النّسق بمثابة الوحدة الأساسيّة التي يقوم عليها النّقد الثّقافي، ويأتي دور الثّقافة ليرسّخه في ذهن المتلقّي؛ ومن سمات النّسق أنّه يختبئ وراء الخطاب، وقد يكون مصدره الذّائقة الحضاريّة للأمّة، فيمكن تسميته بالنّسق الذّهني، دون شرط التّأثير في عقليّة المتلقي، فقد يكون في حالة كمون فيفقده الفعاليّة[3].

وعند (ميشال فوكو) أنّ النّسق عبارة عن علاقات تستمرّ وتتحوّل بمعزل عن الأشياء التي ترتبط بها [4]والمقصود أنّ النّسق إنّما يكون محض علاقات تتشكّل في منأى عن المواضيع التي تنتمي إليها، إلاّ أنّها تستمرّ وتتنقل حسب السّياقات والظّروف دون أن تبرح ذاكرة المتلقي؛ وهذا التّعريف ينطبق على ما يقول به الغذامي، إذْ أنّ خضوع النّسق لحالة الاختباء في عقليّة المتلقّي يمنحه القدرة على الاستمرار والمرونة في التّنقل من زمن لآخر ومن جماعة إلى أخرى، وهذه الخاصيّة لن يستطيع أن تؤديها على أكمل وجه إلّا الثّقافة.

في حين يذهب منذر عياشي إلى "أنّ كلمة نسق جدّ قريبة من المصطلح (بنيّة)"[5]، والواضح أنّ كلا المفهومين: اللغوي والإصلاحي لكلمة "النّسق" ينطلقان من معين

واحد ورؤيا متشابهة؛ لكونهما يتخذان من صفة التّخفي وراء بنيّة اللغة وسيلة لإنتاج الثّقافة.

1.1.مفاهيم ثنائيّة (الولاء والرّفض): جاء في القاموس المحيط "الوَلْيُ: القرب والدّنو.. والوليّ : الاسم منه، والمحبّ، والصّديق، والنّصير"[6]، وأمّا الرّفض في اللغة فهومن "رفضه يرفضه ويرفضه رفضا : تركه، ورفض الإبل : تركها تتبّدد في مرعاها"[7]، فيكون اللفظان متضادان فالأوّل للتجميع والتّأليف والثّاني للتفريق والتّبعيد؛ ولا نذهب بعيداً فعندما نتخطّى عتبة الجمالي في هذه الرّواية –حسب النّقد الثّقافي– تتكشّف لنا بعض الأنساق الثّقافيّة المختبئة وراء خلفيّة الصّراع المحتدم على امتلاك مركزيّة القيمة التّأثيريّة في هذه الرّواية ويفترض أنّ هذه الأنساق تتعلّق بفكرتيْ الولاء والرّفض التي تأبى إلاّ الحضور بشكل لافت في أفعال الشّخصيات والتي لم تأتِ من فراغ بل كانت نتيجة طبيعيّة للثقافة التي ينتجها المجتمع الذي تعيش فيه.

وروايّة (سفر القضاة) للكاتب أحمد زغب[8] يمكنها أن تجيبنا عن عديد التّساؤلات التي تتعلّق بهاذين النّسقين، ولكن علينا أن نطرح الإشكالات التّاليّة؛ ومنها:

- أين تتجلّى أنساق الولاء والرّفض في المجتمع التّقليدي؟
- ما هي أهم الدّوافع النّفسيّة والاجتماعيّة من وراء تشكّل هذين النّسقين؟
- كيف فسّر السّرد هاذين النّسقين في ضوء تصوّر الكاتب عن طبيعة الحياة في الصّحراء؟

إنّ التّطور الحاصل في الدّراسات النّقديّة اليوم يستبشر خيرا بظهور النّقد الثّقافي أو الأنساق الثّقافيّة وما تملكه من آليات إجرائيّة يمكنها الكشف عن الأنساق المضمرة

في النّص، لأنّ النّقد الأدبى –حسب دعاة هذا المشروع–بكل مدارسه أمسى غير قادر على مواكبة الانفجار المعرفي الذي يشهده العالم اليوم في المعنى والمفاهيم، ولم يعد الأدب لغة برّاقة ولا جماليات جذّابة فقط بل أصبح ساحة لصراع الثّقافات والقيم والكشف عن العيوب النّسقيّة في الخطاب.

وأمام تدفق المنجز الإبداعي السّردي لم يعد البحث عن القيمة الجماليّة والمتعة البلاغيّة يكفي لمعرفة الأسرار الكامنة وراء شعريّة النّص وجودة العمل الإبداعي، لهذا فقد لاقى النّقد الثّقافي التّرحيب والحفاوة في المشهد النّقدي العربي.

2.1.أنساقيّة العنوان (التّفكيك الأنساقي): يعدّ العنوان في الرّواية الحداثيّة من أهمّ العناصر النّسقيّة التي تقوم عليها الرّواية، لا نقول هذا بوصفه أولى العتبات النّصيّة كما يقول "جرار جنيت" (Gérard Genette) فقط، بل لأنّ العنوان أصبح يشكّل المعادل الموضوعي لمضمون الرّواية ذاتها، وصار تفكيكه من أعقد المسائل التي تواجه النّاقد لا سيما مع ظهور النّقد الثّقافي الذي تجاوز بعطائه العلمي كل العقبات اللغويّة والجماليّة في دراسة النّصوص ومحاكمتها.

إنّنا حينما نتأمّل عنوان هذه الرّواية "سِفر القضاة" نصاب بالإرباك لأوّل وهلة؛ وقد نتساءل لماذا؟ لأنّنا سنكتشف بعدها أنّ الكاتب أحمد زغب أراد بهذا العنوان "الجريء" أن يجعل منه متعاليّة خطابيّة مستفزّة للقارئ العربي الذي يمتلك دون شكّ في ذهنه الثّقافة المقاومة لنسق الغدر والخيانة في صورة تحيينيّة لليهود التّلموديين.

فعنوان هذه الرّواية في مستوى بنيته السّطحيّة يتكوّن من مركب اسمي عبارة عن مضاف ومضاف إليه، وإن شئنا إعرابهما؛ فالأوّل خبر لمبتدأ محذوف تقديره " هذا سفر القضاة" لكنّنا عندما نغوص أكثر في دلالة العنوان نجد أنّ الكاتب أراد من خلال

هذه الجملة النّسقيّة "سفر القضاة" أن يشدّ انتباه المتلقي إلى خطورة ما سيفضي به في الرّواية، فكلتا المفردتين تصرخان بأنساق الولاء والرّفض وتستفزّان هذا المتلقي إلى معرفة ما سيؤول إليه الخطاب السّردي بعد انجلاء غبار الرّواية.

فنسق"السّفْر" دلاليا لا يمكن أن يُفسّر في معزل عن الثّقافة الخاصّة –إن جاز التّعبير–فهوفي الثّقافة اليهوديّة نسق مقدّس يحظى بكل أنواع الولاء والتّعظيم فهو "سفر الخروج" وهو "سفر التّكوين" بينما يلقى كل أنواع الرّفض في الثّقافة العربيّة المنبثقة من الضّائقة الحضاريّة؛ لأنّ العربي لا يقرأ ولا يحبّ القراءة !! وكلّما كان حجم المقروء كبيرا ازدادت نسقيّة الرّفض لديه وفي القرآن ﴿مَثَلُ الذينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الذينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهوا للَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ ﴾[9] ويمكن تفسير هذا أنّه إقرار بالولاء عند الصّنف الأوّل، وبالرّفض عند الصّنف الثّاني، ذلك أنّ الآيّة الكريمة تقرّ بأنّ اليهود الطّقوسيين كانوا يقرأون التّوراة لكن لا يعملون بها فهم كالحمار يحمل أسفارا، ولمّا كانت دلالة هذا النّسق تعني الإقرار وبكثافة المقروء في هذه الأسفار تتحوّل الدّلالة النّسقيّة في فتور الإقبال على القراءة في الثّقافة العربيّة الرّاهنة إلى نسق الرّفض الكلي في المتخيّل السّردي عند هذه الجماعة لاعتبارات عديدة نتصوّر منها:

- اليهود الضّالون وكل ما يصدر عنهم مرفوض والأسفار نسق سردي؛
- محاكمة نسق الأسفار عند المتلقي العربي يقتضي بالضّرورة محاكمة نسق القراءة وإدانته؛

- انهيار نسق الأسفار وَارِد في تصوّر القارئ العربي مع التّداخل المعجمي بين الأسفار في دلالة "الكتب" والأسفار في دلالة "الرّحلات" بسبب التّحوّل البرغماتي للتفكير العربي "الكسل الحضاري"؛ ويدعم هذا التّحوّل في المتخيّل السّردي تفاقم أزمة القراءة المزمنة في الواقع الرّمزي العربي، وحتى الكاتب أدرك هذا الخلل في الذّهنيّة العربيّة فسارع إلى ضبط كلمة "سِفر" بالشّكل في غلاف الرّواية درءاً للتأويل الخاطئ فيكون نسق الرّفض خيارا برغماتيا عربيا أكثر إقناعا في مقابل نسق الولاء عند جماعة اليهود.

وأمّا كلمة "القضاة" فهي أيضا تتضمن نسقين متضادين أحدهما للولاء والثّاني للرفض وهي بذلك ذات دلالة مركّبة أو بالأحرى نسقا مركبا، فكيف ذلك؟ لا شك أنّ العلائقيّة الموجودة بين العنوان والنّص تذلل لنا كل الصّعوبات في فهم طبيعة العلاقة بينهما عبر مساري المتخيل السّردي والواقع الرّمزي، بحيث أنّ (زغب) حاول عبر بنيّة النّص السّرديّة أن يرسم لنا صورة رمزيّة واقعيّة عن دلالة القاضي المتحوّلة في الثّقافات السّماويّة الثّلاث –إن جاز التّعبير– اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام، بحيث أراد الكاتب من خلالها أن يرسم لنا صور التّزييف الحاصل في هذه الثّقافات التي استغلّت المقدّس باسم الدّين، فحوّلت الخطاب السّماوي المقدّس إلى خطاب أرضي مدنّس في صورة سلوكات وممارسات ويسمّيها الغذامي "العيوب النّسقيّة" كاستغلال البسطاء والمتاجرة بالدّين وتجريم الأبرياء والتّضييق على الأحرار، ووصل الأمر إلى الاغتيال كما حدث لوالدّ حنّا بنت عيراد. والغريب أنّ هذا النّسق–أي القضاة–يجد له استجابة وتواطأ عفويّا بين فئة المتديّنين كما سنرى لاحقا وفي فصول هذه الرّواية، وكما يؤكّد

ذلك مرسيا إلياد في قوله " إنّ رغبة الإنسان المتديّن بالعيش في المقدّس تعادل في الواقع رغبته في أن يقيم نفسه في حقيقة موضوعيّة "[10].

ثمّ إنّ نسق "القضاة" لم يرد اعتباطا –في نظرنا–فقد تعددت صور هؤلاء القضاة في هذه الرّواية ويمكن ملاحظة ذلك فيما يلي:

– رجال الزّاويّة /القضاة حراس الشّريعة: تجلى نسق الزّاويّة في أدائها الباهت ومواقفها الخاذلة لأتباعها، فأصبحت نموذجا رمزيا لنسق الاستغلال لعرق هؤلاء الفلاحين من المعدمين والبسطاء، ومنهم "لمين السّوفي" وأبوه من قبله اللذان أفنيا زهرة شبابهما في خدمة أملاك الزّاويّة التّماسا للبركة فـ "لمين الكهل الذي تجاوز الخمسين نهض منذ الصّباح الباكر، وعرض خدماته على سي حشاني، من كبار المسؤولين على شؤون الزّاويّة، كما قدّم الشّاة السّمينة وصرّة من النّقود وبإلحاح شديد وتوسّل بسي حشاني عسى أن يحظى بلمسة من اليد الشّريفة وأن يربّت الشّيخ الولي على رأس ابنه الوحيد الذي أنجبه بعد طول انتظار وتوسّل وبعد أربع بنات ..وها هو يفي بالنّذر ويُقدّم ابنه خادما لدى الزّاويّة عسى أن يُحظى بالبركة.."[11] ولما حان وقت اختبار نسق البركة وهو النّسق الذي يحجب نسق الاستغلال جاءت النّتيجة مخيّبة للآمال فلم يجد "الطّالب لخضر" من بركاتها غير السّراب في رحلته إلى الزّيتونة ليجد نفسه في النّهايّة مجرّد بائع للسجائر على قارعة الطّريق في نهج الظّلام و"هزّيا" بائساً يقتات من عضلاته ينام بين أحضان بائعة للهوى هي "حنا بنت عيراد" اليهوديّة، ليبدأ تشكّل نسق الرّفض لديه في مواجهة النّسق القديم "الولاء".

– أعضاء البيعة/القضاة حراس التّلمود: يشيع اليهود عن أنفسهم أنّهم شعب الله المختار ومن أجل ترسيخ مفهوم هذا النّسق ابتكروا لهم عدة نظم مغلقة لا تقبل

الاختراق ويتساوى فيها الصّغير والكبير والوضيع والرّفيع وأقلها حدّة التّصفيّة الجسديّة.. ولعلّ في حادثة إسلام عبد الله بن سلام[12] ما يغني عن إدراك التّأويل والشّرح.

وجاء في الرّواية عن بطش المؤسّسة الدّينيّة اليهوديّة "البيعة " بحيث رفضت البيعة وهي المؤسّسة الدّينيّة اليهوديّة عقد قرانهما فعقد القران في إحدى الكنائس المسيحيّة"[13] وهذا يعني أن يبحث "عيراد" عن شرعيّة أخرى معادلة لشرعيّة "البيعة" تمنحه الضّوء الأخضر في الظّفر بفارسة أحلامه، وهذا ما سيثير سخط أعضاء البيعة عليه الذين هم حراس التّلمود "فالباب الذي ينفتح نح وداخل الكنيسة يدل على حل الاستمراريّة "[14] وهذا يغضب هؤلاء القضاة فتبدأ عمليّة المطاردة ثم التّصفيّة.

–مدام سيمون/القضاة في خدمة الاستعمار: تحوّلت الرّوميّة الشّقراء " مادام سيمون" صاحبة "البار" في مدينة تقرت إلى نسق مسيحي كنسي يقدّس الخمر ويبيح المخادنة كمظهر من مظاهر الثّقافة المسيحيّة، بحيث يبدأ هذا النّسق " مادام سيمون" في الظّهور على مسرح الرّواية حينما يتبرأ "لمين السّوفي" من ابنه "الطّالب لخضر" الذي حمل معه من "الزّيتونة" ملامح ثورة ضد قوانين الزّاويّة الجائرة غير أنّ سيرته السّيئة التي سبقته إلى قريته أخلطت له الأوراق، مما تسبّب في كمون نسق الرّفض مؤقتا حينما اضطُرّ إلى العمل في "البار" عند الرّوميّة "مادام سيمون" أرملة الضّابط الفرنسي الذي قضى في حربه ضد الألمان دفاعا عن باريس في الحرب الكونيّة الثّانيّة تاركا زوجته الشّقراء في أحضان زملائه من النّاجين والتي كرّمتها الحكومة الفرنسيّة بمنحها رخصتين الأولى لفتح محلّ لبيع الخمور والثّانيّة لتصدير التّمور إلى فرنسا وأوربا بعد شرائها بأبخس الأثمان من عند الفلاحين.

فمدام سيمون كانت تمثل نسق القاضي المزيف الذي تتجسّد مهمّته في حراسة مصالح الاستعمار مهما كانت قذارة الوسائل (الخمور، الشّبقيّة..) لأنّ الغايّة تبرر الوسيلة وهي الصّورة الحقيقيّة التي دخل من أجلها الاستعمار للجزائر ليقضي على مركزيّة الثّقافة الإسلاميّة فتصبح ثقافة التّخريب نسقا بديلا عن الشّرف والكرامة فيسهّل في ذات الوقت إقصاء الهويّة العربيّة (العُروبيّة / الأعرابيّة)[15].

وهكذا نرى نسق الولاء للشهوات في " مادام سيمون" خاصيّة متجذّرة في الثّقافة المسيحيّة الكنسيّة، ويقابله نسق الرّفض في صورة مقاطعة "لمين السّوفي" لابنه الذي خان أمانته وقبل بالعمل عند أعداء الوطن، ولم يكتف بذلك بل خان الدّين أيضا؛ فقبل أن يكون حارسا للخطيئة (الرّوميّة بكل إغراءاتها)، وشارك "لمين السّوفي " في هذا الرّفض أهل القريّة أيضا، وأمّا الزّاويّة كنسق مرجعي محدود فإنّها تضيع وسط فوضى الأنساق فتحاول أن ترمّم ما خسرته بعد عودة "الطّالب لخضر" وتحريضه لشبان القريّة ضدها مكتفيّة بالمشاركة الرّمزيّة في نسق الرّفض انتقاما من "الطّالب لخضر" .

2-البنيّة الاجتماعيّة في روايّة "سفر القضاة": استوحى الكاتب عنوان هذه الرّواية من استقراءاته لأنثروبولوجيا المجتمع التّقليدي في المغرب العربي، فأحداث هذه الرّواية على ما يبد وتدور بين الجنوب الجزائري وجامع الزّيتونة بتونس في الفترة التي سبقت الاستقلال لكن السّؤال المطروح هو أنّه لماذا اختارت الرّواية هذا الفضاء المكاني لأحداثها تحديدا؟

قد لا ننتظر كثيرا حينما نعلم أنّ جامع الزّيتونة كنسق ديني يشكل متعاليّة خطابيّة لدى سكان الجنوب الجزائري على الخصوص، وذلك لعدة اعتبارات منطقيّة أهمّها:

- فهؤلاء السّكان يرون أنفسهم في وضع صلة قرابة بينهم وبين المجتمع التّونسي الذي يحمل في نظرهم نفس الجينات الثّقافيّة كالعادات والتّقاليد، وحتى الأصول اللهجيّة؛ والمؤكّد أنّنا نتحدث هنا عن منطقة سوف من الجنوب الجزائري.

- وقوع هذه المنطقة قرب مركزيّة النّسق الدّيني وهو جامع الزّيتونة الذي يتوسط ثلاثة تجمعات سكانيّة قريبة من هذه المركزيّة، وهذه التّجمعات هي تونس والشّرق الجزائري وجزء كبير من الشّمال الغربي لليبيا، تماما كما هو الشّأن لجامع القرويين بالمغرب والأزهر الشّريف بمصر.

ومع هذا فإنّ البنيّة الاجتماعيّة في روايّة سفر القضاة تنقسم إلى نمطين من المجتمعات الأوّل شبه بدوي محافظ يسكن الصّحراء ويتدثّر بالأسطورة حتى أخمص قدميه، بينما الثّاني مجتمع غايّة في التّحضر والرّمزيّة إلى درجة الميوعة والإسفاف وبين المجتمعين تتحرك أنساق الولاء والرّفض أنساقا مضمرة تتحكّم في إنتاج الدّلالة في نص الرّواية.

أوّلا : بنيّة المجتمع الصّحراوي (مجتمع شبه بدوي): يصف لنا الكاتب زغب البيئة الإيكولوجيّة التي نشأ فيها بطل الرّواية "لخضر البيكو" ويذكرها بالاسم فهي قريّة "سيدي عمران" إحدى قرى وادي ريغ المحاذي لوادي سوف، ويبد وأنّ عائلة "لخضر البيكو" تعود أصولها أيضا إلى وادي سوف، فيصف في مشهد استباقي من أحداث الرّواية الأجواء السّعيدة في موسم جني التّمور في هذه القريّة الصّحراويّة وسكّانها في الأصل هم خليط بين عرب سوف و"حشاشنة" وادي ريغ، إلاّ أنّ قوّة المؤسّسة الدّينيّة المتمثلة في "الطّريقة القادريّة" وشيخها الهاشمي أزاحت التّباين العرقي بين الفرقتين،

وحلّ محلّهما نسق الولاء فهو المهيمن في ذروة الانتشاء بالتّطهير خاصّة وهو مسنود بمجموعة من الأنساق الصّغرى مثل نسق الكرامة[16] ونسق الفقر ونسق الفحولة ..

ومن دلالات هذا التّمازج وجود حالات المصاهرة بين الفرقتين ومنها عائلة" لخضر البيك و"نفسها فقد كان أبوه "لمين السّوفي" وأمّه "غريسة" من خلصاء "الحشاشنة"، وممّا ساعد على تلاشي هذه الفروق –أيضا–وجود التّشابه الكبير بين الثّقافتين نتيجة عوامل كثيرة تاريخيّة وجغرافيّة وحتى اقتصاديّة كالعزلة وقلة فرص الاتصال بالعالم الخارجي والتّجانس في مكوناتهما الفيزيقيّة والقيميّة وفي الخبرات الحرفيّة فأغلب أفراد هذا المجتمع يشتغلون بالزّراعة[17].

في هذه الرّواية تتبوأ المؤسّسة الدّينيّة التّقليديّة في صورة "الزّاويّة" مكانة الذّروة في عمق هذا المجتمع، وهي التي تحوّلت بفعل الأنساق الأخرى كنسق الكرامات ونسق الفقر ونسق الفحولة إلى ما يشبه القانون الاجتماعي الذي يصعب اختراقه أو مراجعته، ولهذا لما حاول "البيكو" الطّالب الزّيتوني عند عودته من الزّيتونة الاعتراض عليه تعرض للتهميش والإقصاء المباشر ووصل الأمر بأنّ تبرّأ منه والدّه، وهذا يعني أنّ المؤسّسة الدّينيّة لا تسمح بأي تغيير يأتي من خارج نسق الولاء، وهنا استمدّ صاحب الرّواية جزءاً من دلالة العنوان لروايته، فالقضاة هم من يتحكم في البنيّة المضمرة في كل الأنساق سواء الرّئيسيّة أم المتفرّعة، بمعنى أنّ الذين يسيرون هذه المؤسّسة يتسلّطون على مركزيّة الدّين لخدمة أغراضهم الخاصّة، فشيخ الزّاويّة هنا يشكل "الكارزما" الرّوحيّة التي تضبط بنيّة هذا المجتمع السّاذج، وتجنّد لذلك مجموعة من القوانين الجائرة التي هي في الحقيقة عبارة عن أنساق صغرى تعيش في ظل

استمراريّة الأسطورة الإسلاميّة "الولاء للدّين أوّلا "–إن جاز التّعبير– ويمكن أن نوضّح ذلك فيما يلي :

أ–نسق الكرامة: تتغلغل الكرامة بشكل عجيب في الذّاكرة الجمعيّة للمجتمع التّقليدي وليس لها وسيلة تقاوم بها البقاء إلاّ الرّواية الشّفهيّة، فالشّيخ الهاشمي صاحب الكرامات الباهرة هو الممثل الشّرعي لشيخ الطّريقة القادريّة سيدي عبد القادر الجيلاني ويملك كل الصّلاحيات للتصرف في شؤون النّاس وهو في نظر هذه الأسر الفقيرة المخلّص والمطهّر وهو وحده الكفيل بتماسك البنيّة الاجتماعيّة لهذه الأسر. وقد جسّد هذه الكرامات تلك الأهازيج التي ردّدها المدّاحون عند استقبال الشّيخ الهاشمي في سيدي عمران:

"سيدي الهاشمي مُولَى الحُرْمة صاحب اللّزَمْ غالي الشّانْ

يا نذْهةْ من حـــــاير ف أمره غِيثْ المُوجي[18] يا سلطانْ"[19]

ولأنّه "القاضي" الأوّل فمن مهامه منع أي اختراق قد يحصل للمؤسّسة الدّينيّة أو يمسّ بشرعيّة الكرامة التي يمتلكها وحده، وأمّا المتكفّل بتسويقها فهم خدّام الزّاويّة الأوفياء من الدّائرة الأولى وهم المجالسّون له والملازمون لتنقلاته في حلّه وترحاله وهم من يتلقى عنه الكرامة مباشرة، ثم تتكفل الدّائرة الثّانيّة "المريدون"[20] بمهمّة نشر هذه الكرامة داخل هذا المجتمع الصّغير ويسمّيها الغذامي "تسويق النّسق".

ب– نسق الفقر : فالفقر يلعب دورا مركزيا في المحافظة على البنيّة الاجتماعيّة لهذه الجماعة، وأخطر هذه الأدوار تتمثّل في العزلة القسريّة، فغياب الإمكانات المتاحة يجعل حظوظ التّمرّد على قوانين المؤسّسة الدّينيّة معدومة تماما؛ فأي اتّصال بالعالم

الخارجي غير مقبول خارج ما تسمح به قوانين هذه المؤسّسة، لذلك وجدنا أنّ "الطّالب لخضر" أو "لخضر البيكو" لمّا أتمّ حفظ القرآن عرضه أبوه دون تردّد على شيخ الزّاويّة، وهي المساحة الرّمزيّة الوحيدة التي تسمح لهذا النّسق بالإطلالة على نافذة الحياة، فالفقر أحد دعائم الولاء للزاويّة، كما أنّ "لمين السّوفي" خديم الزّاويّة في مستوى الدّائرة الثّانيّة في الحقيقة إنّما هو يساعد هذه الزّاويّة على ديمومة هذا النّسق لماذا؟ لأنّ الزّاويّة لا تفكّر في رفع الغبن عن عائلته المنهوكة بقدر اطمئنانها على درجة ولائه لها فهو خادمها المطيع في مقابل تلك الوصفة السّحريّة "البركة" التي من خلالها تتحقّق السّعادة بمفهوم الكفاف، فالفقر كنسق ديمومة هو هذه السّعادة بعينها.

جـ –نسق الفحولة: ممّا لا شك فيه أنّ المجتمع الصّحراوي من المجتمعات الباطرياركيّة بحيث يبرز نسق الفحولة بقوة العادة والعرف لينسجم مع نسق الدّين فالشّيخ الهاشمي هو رمز الفحولة في نظر أتباعه ومن خلال الدّائرة الثّلاثي: الكرامات، الفقر، الفحولة تكتمل ثقافة الولاء المطلق وهي المسوغ الشّرعي الذي يستمدّ منه شيخ الزّاويّة سلطاته على هؤلاء الفلاحين المعدمين.

غير أنّ نسق الفحولة في هذه الرّواية سلك مسارين مختلفين وإن شئنا متناقضين ففحولة الشّيخ الهاشمي فحولة رسميّة مقننة تستند إلى قوانين الضّبط الاجتماعي لكون الشّيخ الهاشمي في نظر الجماعة الشّعبيّة يمثل السّلطة التّنفيذيّة التي تملك وتحكم وقراراتها غير قابلة للمراجعة ويسمّيه الغذامي مجازا نسق صناعة الطّاغيّة[21] فالشّيخ الهاشمي لم يقدّم لأهل هذه القريّة شيئا ذا بال بل كان يستغلّهم ماديا ومعنويا، في المقابل كانوا يمنحونه الولاء المطلق والطّاعة العمياء، غير أنّ نسق الطّاغيّة يظلّ

مضمرا حتى لا يتعارض مع نسق الولاء ذي القيمة المركزيّة في عمق المؤسّسة الدّينيّة.

وأمّا المسار الثّاني فهو نسق الفحولة غير الرّسميّة –إن شئنا–التي تنشط خارج القوانين وعبّر عنها (زغب) في روايته بلفظة " الهزّي" وهي تعني الفتى الشّهم نصير الضّعفاء وخير من جسّد هذا النّسق "لخضر البيكو" عندما أنقذ الفتاة اليهوديّة "حنّا بنت عيراد" من مخالب أحد الزّبائن في نهج[22] الظّلام، وهو المنعرج النّسقي في الرّواية الذي غيّر حياة "الطّالب لخضر" من "الطّالب الزّيتوني" الموقر إلى "فتى حنّا" المدلّل، وجعله يقدّم لنا صورة أخرى مختلفة عن نسق الفحولة لا تلتقي مع فحولة الشّيخ الهاشمي إلّا في صفة الذّكورة وهي المنطلق الأوّل لباطرياركيّة المجتمع العربي التّقليدي، ومع هذا فإنّ نسق الفحولة في شخصيّة " لخضر البيكو" يحاول أن يتحايل علينا من خلال حالة تزييف الخطاب كما يقول عبد الله الغذامي، فحتى وإن كانت الغايّة مقبولة "نصرة الضّعفاء" إلاّ أنّها لم تستعمل في مكانها اللائق فالدّفاع عن "مومس" فكرة ممجوجة في عرف المجتمع المحافظ بغض النّظر عن التّأويلات الرّمزيّة لمقصديّة الخطاب الدّيني القويم، ولهذا فإنّ المجتمع سيقابل هذا النّسق بالرّفض في حين أنّه يبارك ويزكي نسق الفحولة الرّسمي رغم توحشّه في صورة الشّيخ الهاشمي، وهذا هو الفرق بين المسارين لهذا النّسق. فنسق الفحولة وإن كان ثابتا إلاّ أنّه يتّخذ لنفسه صورا عديدة ومختلفة ترتبط أساسا بثقافة المجتمع المنتج لهذه الثّقافة.

ثانيا: بنيّة المجتمع المتحضر (نمط العيش في مسارب الزّيتونة): يرسم لنا صاحب الرّواية مشهد المفارقات في مدينة عريقة كتونس متخمة بالمدنيّة ولا أقول التّحضّر، فتونس كنسق يحمل دلالات الحياة الرّاقيّة في الذّاكرة الصّحراويّة هو النّموذج الذّروة

الذي يهيمن على المتخيّل السّردي في جلسات الأفراد، فعندما يحكي البدوي انطلاقا من بيئته المقفرة عن تونس فهولا يصف الواقع الرّمزي لهذه المدينة فقط بل يتعدّى ذلك إلى التّجوّل في فضاء الأفق الأسطوري.

وإنّما استمدّت "تونس المكان" القيمة المجتمعيّة من النّظام المجتمعي الذي يحكم البنيّة العامّة لهذا المجتمع، ولعلّ طغيان هذا النّسق على مجتمع الصّحراء يظهر الارتباط الوثيق بين البيئتين الاجتماعيتين في البنيّة العميقة بروابط نسقيّة معقدة تحدثنا عنها في بدايّة بحثنا هذا؛ وقلنا منها الرّوابط العائليّة، لذلك نجد مثلا اسم تونس يتردد كثيرا في تسميّة الإناث عند الجماعة الشّعبيّة في الصّحراء.

- تونس/المدينة الضّائعة: عندما تحدث الكاتب عن تونس النّسق المجتمعي بدا وكأنّه يصف لنا إحدى مدن ألف ليلة وليلة، وقد تراءت لنا رحلة " الطّالب لخضر " نحوها كرحلة السّندباد إلى جزر الواق واق، لأنّ البيئة الاجتماعيّة في مدينة تونس تأخذنا إلى محاولة تفكيك هذا النّسق الذي ارتبط في المخيال السّردي العربي بالثّقافة المفتوحة المتبرجة التي تمتلك كل الأنساق سواء ما تعلّق منها بأنساق الولاء أم ما تعلّق بأنساق الرّفض، فهي مدينة المتناقضات والمفارقات، ولاحظنا كيف أنّ المؤسّسة الدّينيّة "جامع الزّيتونة " لها حضور نسقي في يوميات نهج الظّلام في صورة "الطّالب لخضر" الذي كان وجوده بين العاهرات نوعاً من التّداخل النّسقي بين أنساق الولاء وأنساق الرّفض.

يفسّر المخيال الشّعبي في إقليم صحراء الجزائر الشّرقيّة "نسق تونس" أنّها تلك المدينة الضّائعة الحالمة رمز الإباحيّة المطلقة التي تسكنها العفاريت وهي مسرح الحكايّة الشّعبيّة وكل العفاريت التي تفرّ من الصّحراء تستقرّ بها، وهي "تونس" كلّ

من يلجأ إليها، هي بلد العاهرات وهي بلد المساجد الباكيّة، وهي بلد التّوابل الحارة ورغم ذلك فهي محروسة بالأولياء من كلّ الجهات.

ويخيّل لك أنّ هذه المدينة لا تحتاج إلى حاكم لأنّها تحكم نفسها بأنساق الولاء والرّفض هذه المعادلة هي التي تمنحها الاستمراريّة في الحياة جنبا إلى جنبا الفضيلة مع الرّذيلة والتّقوى مع الفجور، ولهذا فإنّ بنيّة المجتمع في هذا النّسق تحيلنا إلى الرّغبة الجامعة في السّرد عنها بطريقة التّرميز لأنّ اللغة الواصفة تأبى تفسير حالة الضّياع في هذه المدينة فتونس تقف بين هذين النّسقين بمثابة القاضي الذي يفصل بين المتخاصمين.

إنّ تحوّل تونس إلى نسق ثقافي له ما يبرره اجتماعيا داخل البنيّة العامّة لمجتمع المدينة الضّائعة التي تفتقر إلى أدنى مستويات الانسجام الاجتماعي على لسان "حنا بنت عيراد" حين قالتّ مخاطبة للطالب لخضر: "أنا أشفق عليك يا الطّالب لخضر من وضعك هذا ..ماذا يكون رأي أهلك وزملائك وشيوخك في الزّيتونة أنت الطّالب الشّريف، قطعت مسافات شاسعة من الصّحراء الجزائريّة إلى هنا من أجل دراسة علوم الدّين في جامع الزّيتونة، تبيت في حضن عاهرة من حين لآخر!!"[23]، فهل انتهت مهمّة هذا النّسق عند صنع المفارقة بخلخلة مركزيّة الدّين؟ كلا بل أنّ هذه المفارقة تجد لها من المبررات ما يحقّق لنسق تونس الشّرعيّة الاجتماعيّة التي تكتمل بها صورة الضّياع لهذه المدينة حين يقول الطّالب لخضر مخاطبا حنا بنت عيراد عن الأجواء داخل نسق الزّاويّة التي ينتمي إليها "أمّا أهل القيم والأخلاق والدّين والعلم هؤلاء الذين ينظر إليهم النّاس على أنّهم قدوة ..عم أحدثك وعم أسكت؟ هؤلاء الذين يدعون الشّرف من مقدّمي الزّاويّة ..أين الشّرف منهم؟"[24]

3-الولاء والرّفض/المتخيّل السّردي والواقع الرّمزي: في روايّة سفر القضاة تتشابك المنظومة النّسقيّة في البنيّة العميقة لتشكل وَهَجاً دلاليا يحرّك أفعال الشّخصيات في مستوى البنيّة السّطحيّة للنص، بحيث تحوّلت تلك الخطابات المُضمرة إلى أنساقٍ ثقافيّة تتحكّم في مسار التّخييل السّردي عند الفاعلين في الحوار فتكشف الحقيقة المزيّفة لخطابات الواجهة التي تحتكر القيم الدّينيّة، وتسوّقها في إطار وسائل الضّبط الاجتماعي، ونعني بذلك العادات والتّقاليد والأعراف، فلاحظنا كيف كان نسق "الزّاويّة" في المجتمع التّقليدي يمارس دور الرّقابة على هذا المجتمع أو فلنقل "منظومة المخابرات". غير أنّ هذا المجتمع لا يصرّح بنسق القهر الذي تمارسه ضده الزّاويّة في البنيّة العميقة، وهي التي تمتص عرق جبينه وتستغله دون مقابل (البركة مقابل خدمة أملاك الزّاويّة)، وهو النّسق الذي يأخذ شكل "الولاء" في البنيّة السّطحيّة، ورغم هذا إلّا أنّ هناك صراع خفي بين نسق الولاء ونسق الرّفض؛ فكلّما زادت نسبة الوعي برز نسق الرّفض على حساب نسق الولاء وهو ما لاحظناه في تغيّر لغة الخطاب عند " الطّالب لخضر" أثناء عودته من جامع الزّيتونة مخاطبا أباه "لمين السّوفي" قائلا: "جلبوكم من سوف عبيداً تخدمونهم وتخدمون نخيلهم وماذا تستفيدون؟ البركة؟ هذه الكلمة الفارغة التي لا تسمن ولا تغني من جوع ..متى استعبدتم النّاس وقد ولدتهم أمّهاتهم أحرارا "[25] .

والطّالب لخضر يوشك أن يفجّر نسق الولاء من الدّاخل إلاّ أنّ افتقاده لشرط "القدوة" أخلّ بمحمول الخطاب الجديد "الثّورة على قوانين الزّاويّة"، رغم ملامح الاستجابات الضّمنيّة من شباب القريّة، ولكنّنا نتساءل ما علاقة نسقيْ الولاء والرّفض بالمتخيّل السّردي والواقع الرّمزي في أحداث الرّواية؟

4-زغب/أنساقيّة السّرد المقاوم للنسيان (خارج المناصات): يفترض أنّ الرّواية كعمل إبداعي تعدّ في حد ذاتها نسقا ثقافيّا يحفر في المعنى والانتماء الحضاري للكاتب، لذلك يحرص الأدباء على استقراء ومراجعة التّراث والاستفادة منه في تجاربهم الإبداعيّة وهذا ما يلخّصه لنا أحمد بقّار[26] في عدّة عوامل هي:

أ-عوامل ثقافيّة: من خلال التّعبير عن التّراث لا الحديث عنه وهذا ما سعى إليه زغب كتوظيف بعض الصّيغ التّراثيّة مثل "هزّي، الشّرشمان الطّابيّة، الطّالب الفدوة.."[27].

ب-عوامل فنيّة: وتتمثّل في ثراء التّراث، وحاجة الأديب إلى الموضوعيّة الدّراميّة.

ج-عوامل قوميّة: استشعار الأديب الخطر الذي يهدّد أمته في مقوّماتها. والبحث في الجذور من وسائل المقاومة.

د-عوامل سيكولوجيّة: وهي مسألة إحساس الأديب بالاغتراب والضّياع في زمن العولمة وصراع الثّقافات.

هـ-عوامل اجتماعيّة: الرّغبة في إصلاح المجتمع ممّا يجعل الأديب يلجأ إلى التّعميّة والتّعبير بالرّمز والأساطير وآليات التّراث.

ومن هنا فإنّ الكاتب زغب المثقل بأوجاع الصّحراء صار نسقا ثقافيّا أيضا يتحرّك عبر فضاءات السّرد ولعلّ هذا ما تجسد في الرّوايات الثّلاث التي كتبها عن المجتمع التّقليدي في الصّحراء وهي: "المقبرة البيضاء"[28]،"ليلة هروب فجرة"[29]، و"سفر القضاة"، بحيث تطرّق فيها تقريبا لنفس الموضوع وهو سرد الصّحراء المقاوم للنسيان وهذه

العناوين الثّلاثة إنّما هي أنساق ثقافيّة حبلى بالسّرد حاول زغب المبدع أن يبعث خطابات مشفّرة ضد ثقافة النّسيان، وهي تأخذ شكل أنساق مضمرة تتمظهر في المنجز السّردي في الصّحراء في صورة تجلٍ رمزي لواقع الحياة الصّعبة التي هي عبارة عن أنساق ثقافيّة أو خطابات مرمّزة تعبّر عن نسق الرّفض لهذا النّسيان لكون الثّقافة المركزيّة العربيّة تعتبر الصّحراء معادلا موضوعيا للنسيان، ومكانا لموت الأنساق التّراثيّة، فيكون السّرد من أجل ذلك هو الانبعاث لهذه الأنساق، ونعني بالأنساق التّراثيّة هو إسهام الصّحراء في المنجز الحضاري للأمّة الجزائريّة بعد نكسة الاستعمار.

ولهذا فإنّ زغب الكاتب والباحث المثقف يدرك هذا جيدا بوعيه الإبداعي، ويشهد على ذلك ما قدّمه للأدب الشّعبي من أبحاث ودراسات وما جَمعه من مدوّنات شعبيّة كانت مدفونة تحت رمال الصّحراء، فكان الانبعاث السّردي الفرصة التي أعادت صياغة أنساقيّة الصّحراء بكلّ أبعادها الأنطولوجيّة، تتجاذبها نوعان من الأنساق الثّقافيّة لا ثالثّ لهما هما: أنساق الولاء وأنساق الرّفض.. الولاء للسرد كقيمة حضاريّة أنطولوجيّة والرّفض للنسيان كموت للوعي.

لعبة الأنساق: حسب ما طرحه الغذامي في مشروعه "النّقد الثّقافي" تكون الأنساق الثّقافيّة في موقع الاختباء وراء الخطاب، وهي تنشأ وتترعرع بين ثقافة المجتمع المنتج لها، ثم تمارس هوايتها المفضلة في السّيطرة على الخطاب؛ فلا نعجب –إذن–عندما تتكاثر الأنساق وتتوالدّ جينيا بفعل عاملي الرّفض والولاء وهما النّسقان الرّئيسان اللذان يتحكمان بصفة مطلقة في الخطاب، فتكون أنساق "الفقر والكرامة والفحولة" الحافز الذي جعل الفاعل المنفذ "الطّالب لخضر" يخرج من قريته البائسة –سيدي عمران– باحثا عن المُثل التي حدّثه عنها معلّمه "الطّالب الصّادق" الذي منّاه بالخلاص

والتّطهير إن هو أكمل دراسته في الزّيتونة، لكنّه بعد هذه التّجربة اكتشف زيف هذه المُثل مصطدما بنسق الرّفض وقد عبّر عنها بقوله "كأنّي أبحث عن ظلّ الرّيح أو شحم الغول أو لبن العصفور، سالتّ الكثير من النّاس ..كلّهم يرمقوني بدهشة واستغراب ..كأنّما أسال عن شيء لا وجود له .."[30] فانحرف عن المهمّة الحقيقيّة وهي طلب العلم واستبدلها بمهمّة جديدة هي موضوع القيمة "الثّورة على القضاة "، والمحيّر في هذه المعادلة الصّعبة أنّ الأطراف المساعدة قد يتخندقون في مكان واحد وهذا لا يغير شيئا في موضوع القيمة "الثّورة" إذا علمنا أنّ المعارضين ينتمون إلى طبقة واحدة مقهورة تعاني الظّلم بسبب قوانين "القضاة " الجائرة وفي كل تفاصيل الرّواية نجد أنّ الفاعل المنفذ "لخضر البيكو" هو الطّرف الرّئيس الذي يحرك أحداث الرّواية والمسؤول الأوّل في ديناميّة الأحداث بدايّة من حفظه للقرآن وحالة الاستنفار التي حدثت في القريّة والزّاويّة وإصرار سدنة الزّاويّة على إرساله للزيتونة بتزكيّة من الشّيخ الهاشمي الذي كان دوره في الرّواية سلبيا مكتفيا بالدّعاء له فقط.

فالولاء والرّفض هما النّسقان الرّئيسان اللذان يحرّكان باقي الأنساق بسبب تشعّب الفكرة التي طرحها (زغب) في الرّواية، بالرّغم أنّه كان يرمي إلى إدانة جماعة "القضاة" ومحاكمتهم عبر "الوعي الجمعي" في صورة " انتفاضة لخضر البيكو" إلاّ أنّه تورط فنيّا حينما أرهق كاهل "البيكو" في تحمله عبء الرّواية لوحده بدايّة من خروجه من قريته وانتهاء بتورّطه مع الجماعات المعارضة للدولة؛ ودخول "البيكو" في صراعات مختلفة مع الآخر المختلف فكرا وثقافة، ولهذا فإنّنا نلاحظ أنّ الطّرف المعارض والمتمثل في "الزّاويّة والبيعة وسيمون" يرفضون في أحايين كثيرة صفة الأنساق المعارضة إذا اعتبرنا أنّهم يندرجون تحت أنساق الولاء فنسق الزّاويّة لا يزال عزيزا

بين أنصاره "لمين السّوفي، مقدّم والزّاويّة، صمت الاستعمار" وكذا البيعة " أهل حنّا "وأيضا مادام سيمون" استجابة لخضر لرغبات سيمون تردد شباب القريّة المُسلّمين على الخمّارة كلّ جمعة".

قد يأتي الولاء بمعنى الرّفض أو الرّفض بمعنى الولاء من جهة المرسل في محور التّواصل وقد نتساءل لماذا؟ والجواب هو أنّ هذين النّسقين يتحركان حسب مفهوم الخلفيّة الثّقافيّة لشخصيات القصّة، فـ "لمين السّوفي" مثلا نجده يمارس نسق الولاء عندما كان في موضع الدّفاع عن الزّاويّة وبركاتها، ثم يتحوّل إلى نسق الرّفض عندما يواجه ابنه المتمرّد على قوانين هذه الزّاويّة؛ بل ويسعى إلى نسف هذا النّسق باعتباره وهما وتضليلا، فالأنساق كما نرى تتغيّر وفقا لتغيّر مواقف هذه الشّخصيات، لذلك قلنا منذ البدايّة أنّ الأطراف المساعدة تمتلك نفس الثّقافة وهي التي تصنع مواقفها في البنيّة العميقة، في حين نجد الأطراف المعارضة تتصف بالثّبات في مواقفها بسبب مركزيّة الثّقافة التي تنطلق منها فالزّاويّة هي رمز الاستغلال (تأخذ ولا تعطي) والبيعة رمز المؤامرة والانتقام (لا تتسامح مع الخونة) ومادام سيمون رمز الدّفاع عن القيم الاستعماريّة (مهمّة إفساد الشّعب وإلهائه عن قضيته) وهذه المنظومة المتشابهة من ناحيّة الثّقافة عبّر عنها الكاتب بـ"القضاة" وأمّا مشروعهم فعبّر عنهم بـ"الأسفار" وهو المثلث النّسقي المتكرر في كل زمان ومكان الذي يمثل محور الشّرّ في تاريخ البشريّة، ويجسّد الانحراف الخطير عن تعاليم السّماء، واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان باسم الدّين لذلك وجدنا الكاتب زغب استهل روايته بالآيّة الكريمة قوله تعالى "﴿وَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[31].

خاتمة: إنّ النّقد الثّقافي يُعدّ فتحا نقديا في مرحلة ما بعد البنيويّة وما بعد الحداثة بما أتاحه للدرس النّقدي العربي من آليات إجرائيّة أسهمت في دراسة الظّاهرة الأدبيّة النّثريّة منها والشّعريّة، وتُعتبر الرّواية من أهم الحقول الأدبيّة الخصبة التي اشتغل عليها درس النّقد الثّقافي، وكنّا قد تناولنا بالتّحليل والدّراسة أنساق الولاء والرّفض اللذين كان حضورهما الثّقافي لافتا في روايّة سفر القضاة للكاتب أحمد زغب لتخلص في الختام إلى المحصّلة الآتيّة:

–جاء العنوان مشحونا بالدّلالة الثّقافيّة، وعكس تمظهرات الثّقافة التي تحكم المجتمعات الإنسانيّة وكشف لنا الأنساق المضمرة التي تختبئ وراء استغلال المقدّس للحصول على المدنّس؛

–المرونة التي اتصفت بها أنساق الولاء والرّفض فكما أنّ القضاة يتلونون حسب مصالحهم ويسعون إلى صناعة المسوغ فإنّ أنساق الولاء والرّفض في هذه الرّواية – أيضا–تبحث عن المسوّغ لرفض بعض الأفعال أو قبولها؛

–طغيان الجانب الرّمزي على الأنساق الثّقافيّة الموجودة في الرّواية مثل أنساقيّة العنوان وبطل القصّة "لخضر البيكو" وحديث الكاتب عن "واقعة الطّابيّة"؛

–رغم تدخل الكاتب في بناء النّسيج العام للروايّة إلّا أنّ الأفق السّردي لأبطالها كان نشطا من خلال تلك الحوارات التّخييليّة التي قدّمها هؤلاء الأبطال في بناء الأنساق الثّقافيّة كتحليل البيك ولنسق الزّاويّة، وتحليل حنا بنت عيراد لنسق البيعة عند اليهود وتحليل مادام سيمون لنسق الإغراء في الثّقافة الكنسيّة المسيحيّة؛

–إنّ ما طرحه كاتب الرّواية من مضامين نسقيّة في روايته "سفر القضاة" يتجاوز الفضاء المكاني والإنساني للبيئة التّقليديّة التي شهدت أحداث الرّواية، إنّها صرخة مدوّيّة في وجه "القضاة" الظّالمين في كلّ زمان ومكان ودعوة إلى مراجعة الذّات والاستفادة من تجارب الماضي وفرصة للتحلّل من طابوهات الرّقّ والعبوديّة.

<u>ملخّص الرّواية</u>: أحداث هذه الرّواية حسب سياق النّص تأخذنا إلى فترة ما بعد الحرب العالميّة الثّانيّة، ومسرحها قريّة صغيرة بوادي ريغ تسمى "سيدي عمران" وهي منطقة معروفة بزراعة النّخيل، ويبدأ المشهد الدّرامي بالحدث السّعيد فقد حفظ بطل القصّة "**الطّالب لخضر**" ابن **لمين السّوفي** القرآن الكريم كاملا وأتم معه حفظ المتون أيضا، ورشحه معلّمه " الطّالب الصّادق" لإكمال تعليمه بجامع الزّيتونة ويتزامن هذا الحدث مع قدوم شيخ الزّاويّة القادريّة بوادي سوف "**الشّيخ الهاشمي**"[32] إلى هذه القريّة وأصرّ والد الطّفل لخضر **لمين السّوفي** على اقتباس البركة من هذا الشّيخ الرّبّاني.

مقدّم الزّاويّة[33] **سي قويدر** أسرّ إلى الوالدّ لمين **السّوفي** أنّ لا خوف على ابنه في سفره فطريقه مفروش بـ "المقاديم"**!!** الذين يتمنون قدوم هذا المريد الصّغير، غير أنّ الطّالب لخضر لم يجد من هذه الوعود إلاّ السّراب والعذاب حتّى أنّه فكّر في العودة من حيث أتى من شدّة ما قاساه لولا إشفاقه على حال أهله، وما سيقوله أبناء قريته عن هذه الرّحلة الأسطوريّة وهم ينتظرون عودة **الطّالب لخضر** عالما مفتيا أو قاضيا مشهورا.

وصدفة وهو يبحث عن مأوى في مسارب الزّيتونة تعرّف على الفتاة "**حنا بنت عيراد**" اليهوديّة السّاحرة التي كانت تقيم بنهج الظّلام فآوته وأسكنته بجوارها، وتوطّدت

العلاقة بينهما، وانغمس معها في حياة الرّذيلة، وصار يعيش مفارقة بين حياته كطالب زيتوني و"هزّي"[34] حام لعاهرة كما عبّر عنها الكاتب.

استمع **الطّالب لخضر** إلى قصّة "**حنّا بنت عيراد**" وسبب اختيارها لمهنة البغاء ولكي يبقى حيّا اشتغل بائعا للسجائر في نهج الظّلام، ثم توسعت تجارته إلى بيع أشياء أخرى كملابس النّساء الدّاخليّة، وموازاة مع هذه العلاقة كان يرتاد الدّروس الزّيتونيّة على مضض.

بعد ثلاث سنوات عاد **الطّالب لخضر** إلى قريته سيدي عمران خالي الوفاض إلّا من ذكريات حنّا المسكينة، عاد وهو يحمل بين جوانحه بذور ثورة ضد ما سمّاه بالخرافة والدّجل واستطاع أن يؤثّر في شباب قريته، فتحركت الزّاويّة ضده، فطرده أبوه وتبرأ منه أمام الملأ فانتقل إلى مدينة "تقرت" نادلا هزّيا من جديد! ولكن هذه المرة عند "**مادام سيمون**" الرّوميّة الشّقراء أرملة أحد الجنود الفرنسيين حارسا في خمّارتها مستغلّة فحولته المهدورة في قضاء نزواتها المكبوتة.

وقعت أحداث كثيرة منذ مغادرته لقريته فقد تعرّض أبوه للإهانة على يد جيرانه "الحشاشنة"[35] في الغابة فأسرع لتأديبهم، ولمّا قسا الدّهر على أبيه الشّيخ كان يسعفه خفيّة ببعض المال قبله الأب على مضض رغم اعتقاده أنه من رزق حرام.

بعد الاستقلال هاجر "**لخضر البيكو**"[36] إلى فرنسا بحيث اشتغل هناك رفقة صديق طفولته "**سالوم**" هذا الأخير الذي كان يحمل له حقدا دفينا بسبب المكانة الاجتماعيّة والماديّة **للبيك و**في قريته سيدي عمران، وكثيرا ما كان يعرّض **بالبيك و**الذي لم يشارك في الثّورة مثله وهو يروي لأهل القريّة بطولاته الوهميّة. غير أنّ الإرهاب الأعمى لم يمهل سالوم الذي اغتيل في ظروف غامضة أيّام العشريّة السّوداء.

انخرط "**الحاج بيكو**" في مهنة تصدير التّمور بعد شرائها من الفلاحين والتي جعلت منه شخصيّة مرموقة في قريته، لكنّ الذي عكّر صف وحياته هو مغازلة الجماعات المسلحة له التي توسّمت في أفكاره القديمة ومعارضته العلانيّة للزاويّة وحالتّه الماديّة الميسورة خير معين لها في حربها ضد ما تسمّيه الطّاغوت (النّظام) بيدَ أنّه اهتدى إلى حيلة ماكرة يتخلّص فيها من مضايقاتهم، فبعث إليهم برسالة ملغومة قصد من ورائها زعزعة البنيّة الأيديولوجيّة لهذه الجماعة من خلال التّشكيك في شرعيّة أميرهم المتواضع في تكوينه الدّيني والنّفسي؛ ونجحت الحيلة، فتمرّدوا على هذا الأمير ثم تخلّصوا منه.

وتنتهي هذه الرّواية بوقوع هذه الرّسالة بعد ذلك في أيدي قوات الأمن بعد مطاردة الجماعة التي نفذت هجوما على ثكنة عسكريّة بمنطقة "المغير"[37]، ويكون **البيك و**في حكم المتورّط أمنيا. الخبر صدر في جريدة الشّعب الحكوميّة صبيحة اليوم الموالي.

قائمة المصادر والمراجع:

1- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان 1999.

2- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، دار الحديث، 2008.

3- عبد الله الغذامي، قراءة في الأنساق العربيّة، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء ط 3،2005.

4- سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبيّة المعاصرة، دار الكتاب اللبناني وسوشبريس الدّار البيضاء ط1، 1985.

5- منذر عياشي، العلاماتيّة، قراءة في العلامة اللغويّة العربيّة، عالم الكتب الحديث إربد، الأردن،2013.

6- مرسيا إلياد، المقدّس والمدنّس، تر. عبد الهادي عبّاس، دار دمشق للطباعة والنّشر والتّوزيع، ط1، 1988.

7- أحمد زغب، سفر القضاة، دار الكتاب العربي الجزائر، 2016.

8- محمّد عبده محجوب، الاتجاه السّوسي وأنثربولوجي في دراسة المجتمع، وكالة المطبوعات، د.ت، الكويت.

9-أحمد بقار، النّص والقراءة، دراسة نقديّة، مديريّة الثّقافة لولايّة الوادي، ط 1 2016.

الهوامش:

1- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ص: 352.

2- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، دار الحديث، 2008، ص: 1606.

3- عبد الله الغذامي، قراءة في الأنساق العربيّة، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء، ط 3،2005، ص: 84.

4- سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبيّة المعاصرة، دار الكتاب اللبناني وسوشبريس الدّار البيضاء ط1، 1985، ص: 221.

5- منذر عياشي، العلاماتيّة، قراءة في العلامة اللغويّة العربيّة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن،2013، ص: 142.

6- القاموس المحيط، مرجع سابق، ص: 1781.

7- المرجع نفسه ص: 656.

8- أحمد زغب، باحث وأكاديمي وروائي جزائري من طلائع الباحثين في الأدب الشّعبي من مواليد سنة 1960 بالرّقيبة إحدى قرى وادي سوف، له مؤلفات كثيرة منها: سيمياء الشّعر الشّفاهي، الأرجوزة النّسويّة ويملك في رصيده ثلاث روايات هي: المقبرة البيضاء، ليلة هروب فجرة وسفر القضاة.

9- الجمعة الآيّة 5.

10- مرسيا إلياد، المقدّس والمدنّس، تر. عبد الهادي عبّاس، دار دمشق للطباعة والنّشر والتّوزيع، ط1 1988، ص: 30

11- أحمد زغب، سفر القضاة، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2016، ص: 15

12- من أحبار اليهود النّجباء أخفى إسلامه عنهم واختبرهم في حضرة النّبي صلّى الله عليه وسلّم فأثنوا عليه دون تردّد ولما أخبرهم بإسلامه ودعاهم إلى إتباع الإسلام الدّين الحق الذي يجدونه في كتبهم نكسوا وسبّوه وسفّهوه غرورا ولهذا قال عنهم صلّى الله عليه وسلّم " أنهم قوم بهت".

13- أحمد زغب، سفر القضاة، مرجع سابق ص: 37.

14- مرسيا إلياد، المقدّس والمدنّس، مرجع سابق، ص: 28.

15- أقصد بالعروبيّة الأعرابيّة الفصل بين الثّقافة العربيّة ذات الهويّة الصّحراويّة والأوربي المختلف أ والتّقابل النّسقي بين ثقافتين لا تلتقيان ربما يعبّر عنهما لسانيا باختلاف الأسر اللغويّة.

16- المقصود هنا كرامات الأولياء وهي الأعمال الخارقة التي يتصف بها الولي، وهي نسق غيبي يعتمد كثيرا على الرّواية.

17- ينظر: محمّد عبده محجوب، الاتجاه السّوسي وأنثربولوجي في دراسة المجتمع وكالة المطبوعات، د.ت الكويت.

18- الموجي: الموجوع.

19- سفر القضاة، مرجع سابق، ص: 14.

20- مفرد مريد وهو السّالك لطريق التّصوّف ويشترط فيه الطّاعة المطلقة والالتّزام بتعاليم الشّيخ.

21- يرى الغذامي أنّ نسق صناعة الطّاغيّة ظهر منذ أواخر العصر الجاهلي وكان أكثر بروزه في الشّعر بحيث عكس طبيعة العلاقة بين المثقف في صورة الشّاعر المنافق والحاكم المستبد. انظر: عبد الله الغذامي، النّقد الثّقافي قراءة في الأنساق الثّقافيّة العربيّة المركز الثّقافي العربي، ط3، المملكة المغربيّة، الدّار البيضاء، ص: 143.

22- تعدّ كلمة "نهج" من الأنساق الثّقافيّة ذات الخصوصيّة المجتمعيّة في الثّقافة الشّعبيّة والرّسميّة التّونسيّة على السّواء وهي التّفاتة ذكيّة من الكاتب تنمّ عن إلمام لافت بالجانب الإيحائي في الرّواية.

23- أحمد زغب، سفر القضاة، مرجع سابق، ص: 20.

24- أحمد زغب، المرجع نفسه، ص: 22.

25- المرجع نفسه، ص: 47.

26- ينظر: أحمد بقار، النّص والقراءة، دراسة نقديّة، مديريّة الثّقافة لولايّة الوادي، ط 1 2016، ص: 88.

27- هزّي: سبق لنا شرحها، الشّرشمان: هو السّقنقور أ وسمكة الرّمل من أنواع السّحليات التي تعيش في رمال الصّحراء،

28- الطّابيّة: كثيب الرّمل الذي يحمي النّخيل أوقات الرّياح، الطّالب: كلّ من أتمّ حفظ القرآن في المجتمع التّقليدي الفَدْوة: من الافتداء وهو الطّعام الذي يدع وإليه أهل الميّت جيرانهم وأحبابهم وتسمّى –أيضا–عشاء الميّت.

29- أحمد زغب، روايّة المقبرة البيضاء، دار الكتاب العربي، الجزائر 2007.

30- أحمد زغب، روايّة ليلة هروب فجرة، دار سامي للطباعة والنّشر والتّوزيع الوادي 2017.

31- سفر القضاة، مرجع سابق، ص:24.

32- البقرة 79.

33- ربما يقصد الشّيخ الهاشمي الشّريف (1853-1923) شيخ الطّريقة القادريّة بوادي سوف، شخصيّة صوفيّة تاريخيّة مشهورة، قاد انتفاضة 1918 ضد الاستعمار الفرنسي التي سميت بـ"هدّة إعميش". نقلا عن حسان الجيلاني ملحمة الشّيخ الهاشمي الشّريف، دار هومة، الجزائر، 2008، ص: 96.

34- مقدّم الزّاويّة: شبيه بالمنصب الإداري؛ مرتبة في هرم الزّاويّة يكلّف بتسيير أوقاف الزّاويّة موازاة مع عمله كمرشد وموجّه للإتباع والمريدين ولا يشترط فيه الكفاءة العلميّة وإنّما درجة الولاء والنّشاط في خدمة الزّاويّة وشيخها وغالبا ما يكون التّعيين بتزكيّة خطيّة من شيخ الزّاويّة أ ومن ينوبه.

35- الهُزّي: لفظة شعبيّة تعني إعجاب الرّجل بعضلاته وهي من الألفاظ الشّعبيّة المتداولة بين الصّعاليك وقطاع الطّرق وقد يكون "الهُزّيّ " من الخيّرين فيسخّر عضلاته في الدّفاع عن الضّعفاء، في مصر يسمى " حارس السّتّ" أو"الفتوّة" وتسميه أفلام الأكشن والدّراما "البودي قارد".

36- الحشاشنة: أصلهم من قبيلة بني ريغة الزّناتيّة الأمازيغيّة التي ذكرها ابن خلدون ومازالتّ بعض أحيائهم في واد ريغ المعروف بهم في تماسين، بلدة عمر، غمرة، لمقارين الذين يتكلمون الرّيغيّة الأمازيغيّة، مثلهم في ذلك مثل بني ورقلة في ورقلة من بني براهيم وبني سيسين وبني واقين رؤساءهم أثناء عهد ابن خلدون وزناتيي قورارة بتميمون وأدرار الذين ذكرهم ابن خلدون بوطنهم هذا ويقال –أيضا–أنّهم من بقايا زنوج إفريقيا الذين اختلطوا بالعرب، وتنسب التّسميّة لفسيل النّخل "الحشّان" أي: زارع والنّخيل.

37- وهو اللقب الذي كانت يطلقه الفرنسيون على الجزائريين الذين هاجروا إلى فرنسا من أجل العمل خاصّة، ويعني الجزائري المتخلّف.

38- بلدة قديمة إلى الشّمال من وادي ريغ، تتبع إداريا ولايّة الوادي.